

ثاني اثنين

تأملات في دلالة آية الغار على فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه

د. طه حامد

اختصره وهذبّه مركز البحوث والدراسات

فهرسة
مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

ردمك :
رقم الإيداع : ردمك :

حقوق الطبع محفوظة لمبرة الآل والأصحاب
إلا لمن أراد التوزيع الخيري بشرط عدم التصرف في المادة العلمية

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م
مبرة الآل والأصحاب

هاتف : ٢٢٥٦٠٢٠٣ - ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس : ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص . ب : ١٢٤٢١ الشامية الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E-mail: almabarrh@gmail.com

www.almabarrah.net

قال أبو محجن الثقفي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :

سواك يُسمّى باسمه غير منكر
وكنت جليساً في العريش المشهد

وسُميت صديقاً وكل مهاجر
سبقت إلى الإسلام واللّه شاهد

الفهرس

- ٩ مقدمة
- ١١ تمهيد، أبو بكر الصديق رضي الله عنه نفحة طيبة وسيرة عطرة
- ١١ اسمه ونسبه رضي الله عنه
- ١٢ مولده رضي الله عنه
- ١٢ زوجاته وأولاده
- ١٣ ألقابه
- ١٥ صفته الخلقية رضي الله عنه
- ١٧ تجليات شخصية الصديق من خلال آية الغار
- ١٩ تجليات خصائص الصديق في آية الغار
- ١٩ التجلي الأول: تفرّد بلقب «صاحبه»
- ١٩ حقيقة هذه الصحبة
- ١٩ «صاحبه» قبل الإسلام وبعده وفي حياته ومماته
- ٢١ الصحبة عارضة ولازمة
- ٢٤ آثار الصحبة وتجلياتها
- ٢٤ معالم تجلي آثار الصحبة
- ٢٥ المعلم الأول: تجلي أثر الصحبة في علم الصديق وإيمانه
- ٢٥ تقديم النبي ﷺ الصديق في الصلاة
- ٢٥ مظاهر تجلي علم الصديق
- ٢٥ المظهر الأول: موقفه من الاختلاف في وفاة النبي ﷺ
- ٢٧ اختيار الصديق للآية دليل على عظيم فقهه ودقة نظره
- ٢٨ عاش للأمة

- ٢٩ - رجل المواقف الصعبة
- ٢٩ - المظهر الثاني: موقفه في البيعة
- ٣٠ - لولا الصديق لما وصلت الخلافة إلى علي
- ٣٠ - الرجال بالمواقف لا بالعواطف
- ٣١ - المظهر الثالث: قتال المرتدين ومانعي الزكاة
- ٣٢ - نظر بعيد في الدين والسياسة
- ٣٤ - المعلم الثاني: تجلي أثر «الصحبة» في أخلاق الصديق وسلوكه
- ٣٥ - موقفه من مسطح
- ٣٦ - مظاهر تجلي حسن خلق الصديق
- ٣٦ - المظهر الأول: الصدق والتصدق
- ٣٨ - المظهر الثاني: الشجاعة
- ٤٠ - المظهر الثالث: الإنفاق والكرم
- ٤١ - التجلي الثاني لخصائص الصديق في آية الغار: تفرد بالمعية الخاصة ...
- ٤٢ - المعية وأنواعها
- ٤٣ - معية الله لموسى عليه السلام دون قومه
- ٤٤ - بين الحزن والخوف
- ٤٦ - عريش بدر
- ٤٦ - نزول السكينة والتأييد
- ٤٧ - آثار المعية وتجلياتها
- ٤٩ - نائب النبي ﷺ
- ٤٩ - معالم تجلي آثار المعية
- ٤٩ - المعلم الأول: نيابته في الحج عن النبي ﷺ
- ٥٠ - المعلم الثاني: صلته بالناس في مرض النبي ﷺ
- ٥٠ - المعلم الثالث: إلزامه الناس بأداء الزكاة
- ٥٠ - المعلم الرابع: البيعة المتفردة وعدم حاجتها إلى نص أو تعيين

- التجلي الثالث لخصائص الصديق في آية الغار: تفردَه بوصف «ثاني
اثنين» ٥٣
- التجلي الرابع لخصائص الصديق في آية الغار: تفردَه بمواساة النبي ﷺ . ٦٢
- الخاتمة ٦٤



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، خاتم الأنبياء المرسلين وقائد الغر المحجلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ بالهدى والنور واصطفى له أصحاباً حملوا رسالته وبلغوا دعوته فكانوا شموساً للدين وعافية للناس، يهدون الحائرين ويعلمون الجاهلين، وصدق الله القائل في محكم التنزيل وهو أصدق القائلين: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وكان أفضل أصحاب النبي ﷺ وأحبهم إليه وأقربهم إلى قلبه الصديق أبا بكر، معدن الهدى والتصديق، الرفيق في الغار والصاحب في الأسفار وفي جميع الأطوار، الملقب بالعتيق والمؤيد من الله بالتوفيق، المخصوص في الذكر الحكيم بمفخر فاق به كافة الأخيار وعامة الأبرار وبقي له شرفه على كرر الأعصار حيث يقول عالم الأسرار: ﴿ثَانِيكَ أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

فقد جمع الصديق كثيراً من الفضائل وحاز كثيراً من المناقب، ونزلت فيه

آيات تُتلى إلى يوم الدين . منها : آيات نزلت فيه بخاصة وكانت إرشاداً للأمم بعامة .

وآيات نزلت فيه وفي غيره من الصحابة إلا أن نصيبه فيها كان أكبر من غيره وحظه منها كان أوفر مما عداه .

وقد خصصنا هذا الكتيب لبحث إحدى أعظم فضائل الصديق رضي الله عنه ، وهي آية الغار واختصاصه بصحبة رسول الله ﷺ في أخطر وأدق مراحل الدعوة ، وفي ذورة تسلط الأعداء على نبيه ﷺ ، وكان حقيقاً بالفضل كله والمجد كله رضي الله عنه .

هذا ونسأل الله الإخلاص والتوفيق وأن يلحقنا بالنبي ﷺ والصديق رضي الله عنه فمن سار على دربهما نال العز والتوفيق .

مبرة الآل والأصحاب

تمهيد

أبو بكر الصديق رضي الله عنه نفحة طيبة وسيرة عطرة

اسمه ونسبه رضي الله عنه :

من نافلة القول : إن أبا بكر رضي الله عنه وإخوانه من العشرة - من ذرية عدنان ، وعدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فهو قرشي تيمي ، وقد اختلف في اسمه على قولين : عبد الله وعتيق ، ولعل الأخير لقبه وليس اسمه .

قال ابن عساكر : «عبد الله ويقال : عتيق بن عثمان بن قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعيد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي»^(١) .

وهو : أبو بكر الصديق ، واسمه عبد الله بن أبي قحافة واسمه عثمان ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، وقيل : إن اسمه كان عبد الكعبة فسماه الرسول ﷺ عبد الله^(٢) .

أبوه :

عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، وكنيته أبو قحافة .

(١) تاريخ دمشق : ابن عساكر (٣/٣٠) .

(٢) أسد الغابة : ابن الأثير (٣/٢٠٥) .

أُسْمُهُ:

أم الخير، واسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة^(١).

وقيل: اسمها ليلى بنت صخر، وذكر ابن الأثير أنها ابنة عم أبي قحافة^(٢).

مولده ﷺ :

هناك أكثر من رأي في مولد الصديق ﷺ ، والراجح أنه ﷺ ولد بعد عام الفيل بثلاث سنوات^(٣).

وواضح من تعريف الصديق السابق عمق الاتصال النسبي بينه وبين النبي ﷺ ، حيث يلتقي مع النبي ﷺ من ناحية أبيه وأمه في جده مُرَّة.

زوجاته وأولاده:

تزوج أبو بكر الصديق ﷺ من أربع نساء أنجبن له ستة أولاد: ثلاثة من الذكور وثلاث من الإناث وهن على التوالي:

١ - قتيلة بنت عبد العزى^(٤)، وأنجبت له: عبد الله وأسماء ذات النطاقين ﷺ .

(١) راجع: الطبقات الكبرى: محمد بن سعد، (٣/١٦٩) - طبقات خليفة: خليفة بن خياط، ص (٤٨).

(٢) أسد الغابة (٣/٢٠٥).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٢٠٢).

(٤) اختلف في إسلامها، انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/١٦٩) (٨/٢٤٩).

٢- أم رومان بنت عامر رضي الله عنها ، وأنجبت له عبد الرحمن وعائشة رضي الله عنها .

٣- أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، وأنجبت له محمد بن أبي بكر رضي الله عنه .

٤- حبيبة بنت خارجه رضي الله عنها من بني الحارث بن الخزرج : وكانت بها نساء^(١) فلما توفي أبو بكر ولدت بعده ، وأنجبت له أم كلثوم^(٢) .

وننتهي من هذا إلى بيان أن الصديق رضي الله عنه كان له أربع زوجات أنجن له ستة أولاد: ثلاثة من الذكور، وثلاث من الإناث .

فأما عائشة فتزوجها النبي ﷺ وأما أسماء فتزوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه وأما أم كلثوم فتزوجها طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه .

كنيته رضي الله عنه :

وقد اشتهر الصديق رضي الله عنه بكنية أبي بكر وصارت ملازمة له ، وأضحت عنواناً عليه ، وأبو بكر مأخوذة من البكر وهو الفتى من الإبل ، وهو بمنزلة الغلام من الناس ، والأنثى بكرة^(٣) والجمع بكارة وأبكر .

ألقابه رضي الله عنه :

عُرف الصديق رضي الله عنه أيضاً ببعض الألقاب التي أُطلقت عليه إما في صغره وحادثة سنه ، وإما بعد إسلامه وملازمته للنبي ﷺ ، ومن هذه الألقاب :

(١) النساء للمرأة حين يتأخر حيضها عن وقته فيرجى حبلها . انظر : الصحاح للجوهري (١/٧٦) .

(٢) راجع : الطبقات الكبرى (٣/١٦٩) .

(٣) النهاية في غريب الحديث : ابن الأثير (١/١٤٩) - مختار الصحاح : الرازي (٣٩) .

١- الصديق:

وهذا اللقب هو أشهر ألقاب أبي بكر رضي الله عنه على الإطلاق، وقد اشتهر إضافته إلى كنيته فيقال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وقد لُقّب بالصديق رضي الله عنه لكثرة تصديقه للنبي ﷺ، وفي هذا تروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فتقول: لما أسري بالنبي إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتد ناسٌ ممن كان آمنوا به وصدّقوه، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس! قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك فقد صدق. قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟! قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوةٍ أو روحةٍ، فلذلك سمي أبو بكر الصديق^(١).

٢- العتيق:

وهو لقب عرف به الصديق، وقد ذكر ابن حجر في الفتح بعض الأسباب التي من أجلها أطلق على أبي بكر عتيق، وعدّها منها: لأنه ليس في نسبه ما يعاب به، أو لقدمه في الخير وسبقه إلى الإسلام، أو لحسنه، أو لأن أمه كان لا يعيش لها ولد فلما ولد استقبلت به البيت فقالت: اللّهم هذا عتيقك من

(١) رواه البيهقي في الدلائل: باب الإسراء، ح(٦٥٢)، والحاكم في المستدرک: کتاب معرفة الصحابة، باب أبو بكر الصديق، ح(٤٤٠٧). وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وعلق الذهبي في التلخيص وقال: صحيح. وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١/٨٢)، ح(٦٢).

الموت، أو لأنَّ النبي ﷺ بشره بأن الله أعتقه من النار^(١).

٣- خليفة رسول الله ﷺ :

الخلافة في اللغة: مأخوذة من الفعل خلف، وفي لسان العرب: «استخلف فلاناً من فلان: جعله مكانه، وخلف فلان فلاناً إذا كان خليفته، يقال: خلفه في قومه خلافة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وخلفته أيضاً إذا جئت بعده، استخلفته أنا: جعلته خليفتي، واستخلفه: جعله خليفة»^(٢). والخليفة: من استُخلف مكان من قبله، ويقوم مقامه^(٣).

وهذا اللقب أطلق على الصديق ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ.

صفته الخلقية ﷺ :

بداية: وقبل بيان صفة أبي بكر الصديق ﷺ الخلقية التي خلقه الله عليها، فلا بد من بيان شيء قبله، وهو أن حديثنا عن هذه المسألة في الصديق وغيره من إخوانه من العشرة المبشرين لا يتعدى الناحية الوصفية الواردة في السنن والتواريخ وذلك من باب إعطاء القارئ صورة واضحة عن الشخصية المتحدّث عنها، وتقريبها إلى ذهنه تقريباً يجعله وكأنه يراها، وليس من باب أن هذه الصفات لها دور بذاتها في استحقاق

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٧/٧).

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور (٨٤/٩).

(٣) الخليل بن أحمد: العين (٢٦٨/٤)، دار الرشيد - العراق، ط ١، سنة ١٩٨١ م.

صاحبها أن يكون من العشرة المبشرين بالجنة؛ لأنه كما هو واضح للجميع أن معيار التفاضل في الإسلام إنما هو بالتقوى والإيمان لا بالصور والأشكال، ولا بالأحساب والأنساب. فالله عز وجل لا ينظر إلى الصور وإنما ينظر إلى الأعمال والتقوى.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ^(١).

وعليه فإن أبا بكر ﷺ لم يكن ليتصدر قائمة العشرة لبنيته الجسدية ولا لجمال هيئته، وإنما بإيمانٍ وَقَرَّ في قلبه، وبقينٍ استقرَّ في فؤاده، وإخلاصٍ تحكَّم في مسار حياته، وعملٍ صدَّق هذا كله وأظهره.

ونعود إلى حديثنا عن صفة الصديق الخَلْقِيَّة، فقد كان ﷺ رجلاً أبيض نحيفاً خفيف العارضين معروق الوجه قليل اللحم غائر العينين ناتئ الجبهة يخضب بالحناء والكتم^(٢).

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، ح(٢٥٦٤).

(٢) تاريخ دمشق: ابن عساكر(١٩/٣٠) وخفيف العارضين: يُراد به خفة شعر عارضيه، وهما صفحتا الخدين (لسان العرب: ٧/١٨١). ومعروق الوجه: قليل لحم الوجه (مقاييس اللغة: ابن فارس(٢٨٧/٤) والكتم: هو نبات يُختضب به. انظر: مقاييس اللغة(١٥٧/٥).

تجليات شخصية الصديق من خلال آية الغار

لقد نزلت في مناقب الصديق ﷺ آيات كثيرة، منها آيات عامة يشترك فيها جميع الصحابة، ومنها ما هي خاصة بالصديق لم يشاركه فيها أحد منهم.

وحتى الآيات العامة - إذا تأملتها - تجد لأبي بكر فيها من النصيب ما ليس لأحدٍ غيره. فهي من هذه الناحية تدرج في خصوصياته، لا من حيث النوع ولكن من حيث الكيف.

ويأتي على رأس قائمة هذه الآيات «آية الغار»، وهي التي سنتناولها بالتفصيل، ونسأل الله العظيم التوفيق والسداد.

قال تعالى: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

لقد نزلت هذه الآية العظيمة في حق رسول الله ﷺ وحق الصديق ﷺ، لم يشركهما في شرفها وفضلها أحد من الأمة أو الصحابة ﷺ، وفيها من الفضائل التي اختص بها أبو بكر الصديق دون غيره من الأصحاب ما لا يحصى.

وقد تجلّى للصديق رضي الله عنه في هذه الآية أربع خصائص هي :

- ١- تفرّده بصفة «صاحبه» .
- ٢- تفرّده بالمعيّة الخاصة .
- ٣- تفرّده بوصف «ثاني اثنين» .
- ٤- تفرّده بمواساة النبي ﷺ له .

* * *

تجليات خصائص الصديق في آية الغار:

* التجلي الأول: تفرد بصفة «صاحبه»:

في الآية الكريمة يتفرد الصديق بصفة الصحبة المضافة إلى أشرف مصحوب: رسول الله ﷺ، إذ جاء اللفظ هكذا: «صاحبه».

لقد كان لرسول الله ﷺ آلاف الأصحاب، فلم يختار ربنا أحداً منهم يشرفه في القرآن كله بإضافته إلى نبيه ﷺ بهذه التسمية غير أبي بكر! فيا لها من مزية تفرد بها! ويا له من شرف تناهى وما انتهى!

إن كل فضيلة تعلقت بالصحبة فأبو بكر أولى بها، وله منها السهم الأوفر لأنه الفائز بلقب صاحب في القرآن دون بقية الأصحاب.

لو كان لملك من الملوك عشرة وزراء، فأطلق على واحد منهم فقط لقب «وزير الملك»، وكتب في ذلك مرسوماً ملكياً وأعلنه على الملأ، فإن الناس جميعاً سيعرفون أن هذا الوزير هو المقدم على بقية الوزراء، وإلا لما أفرد هذا الوزير من بينهم بهذا اللقب مع أنهم جميعاً وزراؤه.

ومن هنا جاءت أفضلية الصديق على بقية الأصحاب - بمن فيهم عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم - لأنه المختص من بينهم في القرآن بلقب صاحب النبي ﷺ، فمن هو الأولى من صاحب النبي ﷺ بمنصب الإمامة والخلافة؟! فليس عبثاً أن يوفق الله المسلمين فيخصون الصديق بلقب خليفة رسول الله ﷺ فلم يُطلق على أحد غيره.

* حقيقة هذه الصحبة:

«صاحبه» قبل الإسلام وبعده وفي حياته ومماته:

تفرد أبو بكر الصديق بصحبة النبي ﷺ قبل الإسلام، حتى صارت قريش تطلق عليه وعلى محمد لقب «صاحبك»، فإذا قالوا لأحدهما: «إن صاحبك كذا وكذا» لا ينصرف الذهن إلا إلى الآخر! وجاء القرآن شاهداً ومؤكداً إذ أطلق هذا اللفظ «صاحبه» مضافاً إلى النبي ﷺ دون تصريح باسم أبي بكر، ولا قرينة لفظية تميزه أو تخصصه، ومع ذلك لم يفهم أحد أو يدع أن المقصود به أحداً غيره!

وما ذلك إلا لأن هذا اللقب أو اللفظ قد صار علماً على أبي بكر وحده، فلا يحتاج معه إلى اسمه الصريح أو قرينة أخرى تدل عليه.

كان أبو بكر قبل الإسلام صفيّاً لرسول الله ﷺ قبل البعثة، واستمر على هذه الصحبة بعد الإسلام إلى يوم وفاته ﷺ، ثم استمر متجاورين بعد مماتهما إلى اليوم!

تأمل ماذا قالت قريش لأبي بكر يوم صدع النبي ﷺ بدعوتهم إلى الإسلام، قالت: لقد جُنَّ «صاحبك»، وصبيحة الإسراء قالوا له: اسمع إلى ما يقول «صاحبك»^(١).

ولما عزم على أن يهاجر قال له النبي ﷺ: على رسلك يا أبا بكر لعل الله يجعل لك «صاحباً». حتى إذا جاءه ليخبره أن الله قد أذن له في الهجرة قال: «الصحبة». يا رسول الله! قال ﷺ: «الصحبة»^(٢). تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ما شعرت قبل ذلك أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٦٥/٣) حديث (٤٤٠٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٠٥/١) حديث (٣٠٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترى متاعاً أو دابة ح (٢١٣٨).

يبكي حين أذن له رسول الله ﷺ في «صحبته»^(١).

ألا ما أعظم منزلة هذه «الصحبة»! منزلة تبكي لها الرجال دموعاً! إنها شرف لم يؤثر به الرسول ﷺ أحداً سوى «صاحبه» الذي اختار «صحبته». إنها صحبة المصير الواحد في أخطر رحلة وأحرج موقف يخلده الله تعالى قرآناً يتلى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الصحبة عارضة ولازمة:

الصحبة صبتان:

١- صحبة عارضة لسبب تزول بزواله، كصحبة يوسف عليه السلام لصاحبي السجن. إنها صحبة فرضها السجن الذي جمعهم فما أن خرجا حتى نسياه وما ذكره أحدهما إلا بعد بضع سنين! وصحبة الرجلين المذكورين في سورة «الكهف» إذ جمعتهم التجارة، وكان المؤمن ناصحاً لصاحبه مخلصاً في نصيحته، فلم يداهنه على كفره، بل بيّن له حقيقة حاله، ودعاه إلى الإيمان بصراحة ووضوح. وهذا هو الواجب في حقه، وهو خير- ألف مرة - من آخر يصحب كافراً طيلة حياته فلا ينصحه ولا يدعوه إلى ترك ما هو عليه، وتستمر الصحبة بينهما إلى الممات وهو يجامله ويداريه! كيف يتصور مثل هذا من رسول الله ﷺ مع «صاحبه»! ألا ساءت الظنون وانتكست القلوب!

وكما فعل الرجل المؤمن مع صاحبه الكافر من الدعوة والنصيحة، كذلك فعل يوسف عليه السلام مع صاحبيه إذ قال: ﴿يَصْصِحِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ

(١) رواه ابن إسحق كما في سيرة ابن هشام (١/٤٨٤)، ومن طريقه الطبري في تاريخه.

خَيْرٌ أَمْرُ اللَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿يوسف: ٣٩ - ٤٠﴾.

٢- صحبة لازمة لاستنادها إلى سبب دائم لا يزول، كصحبة رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق ﷺ. ولو كانت كصحبة الرجلين في سورة الكهف كما يقول المتهاوكون، لانقطعت وما دامت إلى الأبد. ثم كيف يُساء الظن برسول الله ﷺ! أيتخذ النبي ﷺ له صاحباً ثم لا يكون هو خير الأصحاب! ألا يحسن ﷺ الاختيار؟ أم أنه اختاره لأسباب دنيوية عارضة؟ فكيف دامت صحبتهما طيلة هذه المدة وهو لا ينصحه ولا يردعه! أرايت لو أن رجلاً مصاحباً لرجل صحبة دامت سنين طويلة ثم تبين لك أن مصالح دنيوية جمعت بينهما، وأن الرجل الثاني كان سيئاً في ذاته وأخلاقه ونواياه دون أن يكون ذلك السوء سبباً دافعاً لصاحبه أن يردعه أو ينصحه أو - على الأقل - يتركه، ألا تشك في صلاح الأول؟

أهكذا الظن بصفوة الرسل وخيرة الخلق وهو القائل: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»^(١)؟! ولا شك أن الصحبة العارضة ليست هي المقصودة بالنهاي.

لقد كانت صحبة النبي ﷺ لـ «صاحبه» صحبة الدين والغايات العظيمة السامية. ولذلك قال ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر

(١) رواه الإمام أحمد (١١٣٥٥) وأبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، والدارمي (٢٠٥٧)، وابن حبان (٥٥٤)، وحسنه الشيخ الألباني.

خليلاً»^(١). وكذلك هي صحبة المشابهة والمشاكلة النفسية والأخلاقية والفكرية - ولا بد - ، يقول النبي ﷺ : «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»^(٢).

ولذلك اختاره رفيقاً له في الهجرة و«صاحباً» يؤنس وحدته ويبدد وحشته ، ولولا هذه المشابهة والمشاكلة ، والراحة والميول النفسية المتبادلة لما اختار صحبته في تلك الرحلة الخطرة الموحشة .

إن المسافر سفيراً عادياً يستغرق ساعة أو ساعتين لا يطيق أن يصحب في سفره القصير هذا إلا من ترتاح إليه نفسه ويطمئن إليه فؤاده إليه ، فكيف برحلة شاقة عصيبة منها أيام ثلاثة في غار موحش في جبل منقطع عن العمران!

إنها صحبة رجل الملمات والمهمات الصعبة ، كما هي صحبة الإنسان للإنسان الذي ترتاح إليه النفس وتأوي إليه آمنة مطمئنة ، وإلا فإن الأمر كما قال الشاعر العربي :

وقائل كيف تفارقتُما لم يك من شكلي ففارقته
فقلت قولاً فيه إنصاف والناس أشكال وآلاف

ولو لم يكن أبو بكر ﷺ من شكل النبي ﷺ لما كانت صحبتها صحبة العمر كله ، بل صحبة استفرغت الحياة . ثم اتصلت بعد الملمات!

(١) رواه البخاري كتاب أبواب المساجد ، باب الخوخة والممر في المسجد (٤٦٦) ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٢٣٨٢) ، واللفظ لمسلم .

(٢) رواه البخاري كتاب الأنبياء ، باب الأرواح جنود مجندة (٣٣٣٦) ، ومسلم كتاب البر والصلة ، باب الأرواح جنود مجندة (٢٦٣٨) .

* آثار الصعبة وتجلياتها:

للصعبة آثارها في أخلاق الأصحاب وسلوكهم نتيجة تفاعل الصاحب مع صاحبه، وتأثره بأخلاقه وتصرفاته، وكلما كانت الصعبة أصدق، والنفس أصلح وأكثر استعداداً للتأثر، تجلت أخلاق الصاحب في صاحبه أكثر، حتى يمكن أن يكون صورة أخرى له تعكس ما في صورة الأصل من قسّمات وملامح، لأن الأثر يعتمد على قوة المؤثر، وعلى مدى صلاحية المحل للتأثر.

يقول النبي ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»^(١).

ويقول الشاعر العربي القديم:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
برزت آثار صعبة الصديق ﷺ للنبي ﷺ واضحة المعالم في علمه وإيمانه، وفي سلوكه وأخلاقه. وبلغت معالم هذه الآثار من البروز والوضوح مبلغاً يشكل في حد ذاته دليلاً قاطعاً على صدق هذه الصعبة، وقوة عراها، وسمو مقاصدها، وعلو منزلتها.

* معالم تجلي آثار الصعبة:

وسأتكلم - بإيجاز - عن معلمين من معالم هذه الآثار: المعلم الأول: تجلي هذه الآثار في علم الصديق وإيمانه. والثاني: تجليها في أخلاقه وسلوكه.

(١) رواه أحمد (٨٠١٥) وأبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الشيخ الألباني.

المعلم الأول: تجلّي أثر «الصحبة» في علم الصديق وإيمانه:

* تقديم النبي ﷺ الصديق في الصلاة:

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أعلم الصحابة. ويشهد لهذا أن النبي ﷺ قدمه ليصلي بالناس في مرض موته، وهذا دليل جلي على أن النبي ﷺ كان يراه أعلم الصحابة وأقرأهم لكتاب الله تعالى، ولولا هذه «الأعلمية» لما قدمه عليهم وفيهم خيرة السابقين الأولين، كعمر الفاروق، وعثمان ذي النورين، وأبي عبيدة ابن الجراح، وعلي، وطلحة، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وأمثالهم ﷺ.

وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ»^(١). فأبو بكر هو الأقرأ - بين الصحابة طراً - لكتاب الله بشهادة النبي ﷺ وتركته العملية، وكفى بذلك شهادة وتركية!

والأقرأ في لغة النبي ﷺ تعني الأعلم، فإنهم كانوا يسمون العلماء أو الفقهاء بـ«القراء».

مظاهر تجلّي علم الصديق:

وقد تجلّى علم الصديق رضي الله عنه في المواقف الحرجة التي تذهب بألباب الحكماء، ويحترار عندها الحكماء! وكان لذلك مظاهر أبرزها ثلاثة هي:

المظهر الأول: موقفه من الاختلاف في وفاة النبي ﷺ:

فمن تجليات علم الصديق التي برّ فيها الأقران: ما كان يوم وفاة النبي ﷺ

(١) رواه مسلم (٦٧٣) وغيره.

وقد اختلفوا في موته: هل مات حقاً أم لا؟ وكانوا مضطربين مذهولين لا يعرفون كيف يعالجون الموقف، وقد غص المسجد بالناس وعمر بن الخطاب يلوح بسيفه قد طاش عقله من الهول يقول: «والله ما مات رسول الله ﷺ»^(١)!

الكل في حيرة وليس من منقذ!

حتى إذا جاء كبيرهم وإمامهم رجع كل شيء إلى مكانه، وانتظم عقد أمورهم كأنهم كانوا معه على ميعاد! هدأت الأرواح وخشعت الأصوات واشربأت الأعناق، وتعلقت الأبصار بهذا الذي ارتقى منبر رسول الله ﷺ، وأصخت الأسماع تتلهف إلى سماع ما يقول ويقرر ويحكم فيفصل!

كلمة واحدة وآية واحدة:

وبكلمة واحدة وآية واحدة أزال الاضطراب وعالج الموقف!

أما الكلمة..

فقوله ﷺ: «أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات!! ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

وأما الآية....

فقوله جل جلاله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] تلاها عليهم فإذا بهم يرددونها خلفه كأنها

(١) رواه البخاري (٣٦٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

نزلت لتوها، أو كأنهم لم يسمعوا بها من قبل!!

يقول عمر: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت، حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض»^(١).

اختيار الصديق للآية دليل على عظيم فقهه ودقة نظره:

إن اختيار أبي بكر رضي الله عنه لهذه الآية في هذا الموقف دليل على عظيم فقهه وعلمه، ودقة نظره وبعد غوره، إنها الآية التي نزلت - قبل بضع سنين - علاجاً لموقف مشابه تعرض له الأصحاب في «أحد» يوم أشيع أن محمداً قد قتل! فحصل ما حصل من الاضطراب - على ما هو مفصل في الكتاب والسيرة - فنزلت الآية تعالج هذا الخلل الذي تكرر يوم مات محمد ﷺ حقاً؛ فعالج الصديق الداء نفسه بالدواء نفسه فكان الشفاء التام بإذن الله، وتجاوز الصحابة الموقف حين سمعوا الآية تتلى عليهم فتذكروا ما حصل لهم يوم أحد، فكانت استجابتهم سريعة، استفادة من تجربة سابقة مشابهة أعادها إلى أذهانهم ذكاء الصديق حية حاضرة حين طرق أسماعهم بتلك الآية العظيمة الباهرة، والمؤمن «لا يلدغ من جحر مرتين»^(٢)!

لقد كان عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وغيرهم يحفظون الآية، ويرون الخلل، ويعيشون الموقف، فلماذا لم يرتق واحد منهم المنبر ليتلو الآية، ويتكلم بما يناسب المقام، لتلتئم الأمور وتستقر الحال؟

(١) رواه البخاري (٤٤٥٤).

(٢) متفق عليه. رواه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لم يكن واحد منهم هو صاحب الموقف، الكل يعلم - أو يحس - أنه «ليس لها» وأبو بكر في الوجود، فهم ينتظرونه كما ينتظر أفراد العائلة كبيرهم الغائب، ويتربحون مجيئه عند موت والدهم، فلا يجروا أحد على حسم الأمور والبت فيها دونه.

عاش للأمة:

وحين تستعيد الموقف تجد أن الكل عاش عواطفه وأحاسيسه الخاصة وعبر عنها كما يشاء، إلا أبا بكر! فإنه كتم عواطفه وكانت أرقها، وأحاسيسه وكانت أرهفها، وانفعالاته وكانت في أوج ثورانها! إن الفقيه «صاحبه»!

لقد تصرف كما يتصرف كبير العائلة عندما تفقد ربها، فيتصبر ويتجمل ويتظاهر بالجلد، وإن كان أكثرهم تأثراً وأعظمهم مصيبة! لماذا؟ حتى لا تنهار العائلة.

كل فرد منهم يعيش لنفسه وعواطفه: هذا ييكي.. وهذا يصرخ.. . وذلك قاعد منزو.. وغيره يلطم، وآخر يهتف.. إلا كبيرهم؛ إنه يعيش لهم فهو لا يفعل.. ولا يفعل مثلهم! وكذلك فعل أبو بكر!

لقد عاش ساعتها للأمة كي لا تنهار، رغم أن قلبه كاد يتمزق حزناً على رسول الله ﷺ ولو رأيت لوجدته كالجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب! ولولا ذلك لاستمر الاضطراب، واشتدت دوامة الحزن فعصفت بالأمة فلم تفق إلا على الأنصار وقد بايعوا وانفردوا بالأمر

ووقعت الواقعة!

رجل المواقف الصعبة:

لكن أبا بكر - وأبا بكر لا غيره - حسم الأمرين معاً، ولو تأخر حسم الأمر الأول لما حسم الأمر الثاني. . ولصالح المهاجرين.

المظهر الثاني: موقفه في البيعة:

فما إن انتهى أبو بكر من علاج الموقف العصيب الأول، حتى سارع - وقد جاءه الخبر بأن إخوانهم الأنصار قد اجتمعوا ليباعوا سعد بن عبادَةَ ﷺ - ليعالج موقفاً عصيباً قد استجد لا يقل عن سابقه!

وكان لعلمه ﷺ بالنفوس وفن التعامل معها، والقلوب وكيف يُمكن منها، وعلمه بالشرع أصولاً وفروعاً، ومعرفته بكيفية صياغة القول وإلقاء الخطاب، ولسابقتها و«صحبتها» الدور الفاعل في حسم أكبر مشكلة تواجه الدول الناشئة وتهدها بالزوال أو الانقسام: ألا وهي ولاية الأمر بعد المؤسس الذي غادر الحياة. وكان مما قاله في السقيفة المباركة: «يامعشر الأنصار إنكم لا تذكرون فضلاً إلا وأنتم له أهل، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش، هم أوسط العرب داراً ونسباً، لقد سماكم الله في كتابه بالمفلحين وسمانا بالصادقين، والله يقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَكَوْنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، وإني رضيت لكم أحد هذين الرجلين، وأخذ بيدي عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح، لكن عمر حسم الأمر فقام، وقال لأبي بكر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله، وأخذ بيده

فبايعه وبايعه الناس^(١).

لولا الصديق لما وصلت الخلافة إلى علي:

وعادت الأمور إلى نصابها فكانت الخلافة في المهاجرين، والوزارة في الأنصار، وصارت سنة ماضية لا يعترض عليها أحد، فلولا أبو بكر لكانت الخلافة في الأنصار- هذا إذا بقيت خلافة- ولما وصلت إلى عمر، ولا كان علي في يوم من الأيام خليفة على المسلمين! فجزاه الله عن علي وعمر وعثمان وعموم المهاجرين وجميع الأمة خير الجزاء.

الرجال بالمرافق لا بالعواطف:

إن الرجال لا تقاس بالانفعال والعواطف، وإنما بالفعال والمواقف، ولولا موقف أبي بكر عند وفاة النبي ﷺ لما استفادت الأمة مثقال جناح بعوضة من عواطف عمر ودموع علي، ولكانت البيعة في الأنصار، ولاضطربت الأمور واختلف الناس! لا سيما وأن أكثر القبائل أعلنت العصيان ووقع بعضها في الارتداد، وتملأ الروم واستغل الفرس الفرصة فعبروا الخليج، ودخلت جيوشهم البحرين وانضمت إلى تحشدات المرتدين.

ولولا أن من الله على الأمة بأبي بكر لتصدع بناؤها، وانهارت وحدتها، وصارت طعمة للطامعين، ولهذا قال عمر بن الخطاب ﷺ وهو يقبل رأسه: «لولا أنت لهلكنا»^(٢). وقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس

(١) رواه البخاري (٣٦٦٨) من حديث عائشة ﷺ.

(٢) انظر: الرياض النضرة في مناقب العشرة ص (٦٨).

فقال: «رأيت قبيل الفجر كأني أعطيت المقاليد والموازين، فأما المقاليد فهذه المفاتيح، وأما الموازين فهي التي تزنون بها، فوُضِعَتْ في كفة ووضعت أمتي في كفة فوزنتُ بهم فرجحتُ، ثم جيء بأبي بكر فوزن بهم فوزن، ثم جيء بعمر فوزن فوزن، ثم جيء بعثمان فوزن بهم، ثم رُفعت»^(١).

نعم! لقد كانت الأمة يومها أبا بكر، وكان أبو بكر هو الأمة، فلو ضعف أو تردد، أو التبست عليه الأمور لانهارت وتفتت وصارت في خبر كان!

المظهر الثالث: قتال المرتدين ومانعي الزكاة:

والموقف الثالث العويص فقهياً والعصيب عملياً وعسكرياً - الذي تجلّى فيه علم أبي بكر كالبدر يجلو الليلة الظلماء، وإيمانه كالجبال التي لا تهزها الأعاصير - هو يوم أن عارضه الصحابة في قتال مانعي الزكاة! فقد قال له عمر رضي الله عنه: يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها^(٢). ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥٤٦٩)، وعبد بن حميد (٨٥٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣١٩٦٠) وضعف الشيخ شعيب الأرناؤوط إسناده في تعليقه على مسند أحمد، وضعفه الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة (٦٤٨٦).

(٢) متفق عليه رواه البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لقد استند أبو بكر الصديق ﷺ إلى النصوص القرآنية، وفهم من الحديث النبوي ما لم يفهمه من وقف عند ظاهره، فغاص فيه واستخرج من جواهره وإن لم تكن قريبة المنال!

إن عمر بن الخطاب ﷺ من عظماء المجتهدين الذين تميزوا في صدر الأمة، وهو محدث مسدد بشهادة النبي ﷺ، وقد احتج بحديث حسبه له فإذا به يكون عليه! فيا لله أبو بكر من رجل يقلب حجة عالم مجتهد كعمر فإذا بها ترتد عليه وقد كانت سلاحاً في يديه!

نظر بعيد في الدين والسياسة:

لقد كان الصديق - وهو يتخذ قراره العسكري بقتال مانعي الزكاة، وعدم التفريق بينهم وبين المرتدين - بعيد النظر من الناحيتين الدينية والسياسية!

إن التساهل في ترك ركن من أركان الإسلام يؤدي - ولا بد - إلى ترك ركن آخر احتجاجاً بالأول، وهكذا سيأتي جيل يترك الصيام، وآخر يترك الصلاة، ورابع يترك الحج والجهاد الخ، فإذا بالدين قد انهدم، فلا بد من سد باب الفتنة، وبابها إقرارهم على ترك أداء الزكاة، هذا من الناحية الدينية.

أما من الناحية السياسية فإن للزكاة جانباً سياسياً لا يخفى على رجال الحكم والسياسة.

إن لكل حكومة على رعيته التزاماً مالياً اعترافاً بنظامها السياسي، وإن الامتناع عن أدائه إعلان عن العصيان والتمرد على النظام وعدم الاعتراف به، ولا اعتماد على رعية أو شعب إذا كانت علاقته مع حكومته على هذه الصورة.

لقد كان الصديق - وهو التلميذ النجيب لأعظم حاكم سياسي في التاريخ - يدرك تمام الإدراك أن الامتناع عن أداء الزكاة إعلان عن عدم اعتراف الممتنعين بالنظام السياسي لحكومته، فإذا أقرهم عليه فقدت حكومته هيبتها، وكانت الرعية الممتنعة أكثر جرأة على عصيانه في أمور أخرى، لا سيما الجهاد وقتال الكافرين، وهكذا تنهار الحكومة وتتفكك الدولة، بعد أن انهار الدين وانهدمت أركانه!

لقد أدرك الصديق ذلك كله بثاقب نظره، فلم تستفزه المصالح الوقتية القريبة عن المصالح الحقيقية الدائمة، وما ذلك إلا لرسوخ علمه وقوة إيمانه الذي تميز به على بقية الأصحاب، فمن منهم أولى منه بالحكم وإدارة شؤون الخلافة والسياسة؟!

وهكذا استطاع أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يقضي على أكبر فتنة عصفت بالأمة؛ فتنة الارتداد والعصيان والحروب الأهلية، ولو فشل في القضاء عليها لانطلقت من عقالها ودمرت كل شيء، يقول ابن مسعود رضي الله عنه : «لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن من الله علينا بأبي بكر»^(١) لكن الأمة - بحكمة أبي بكر وثاقب نظره وعلو همته وشدة عزمته، وقوة إيمانه و يقينه بربه - خرجت من هذه الفتن سليمة معافاة قوية متحدة، بحيث تمكنت بعد ذلك مباشرة من أن تضرب أكبر إمبراطوريات العالم آنذاك؛ فارس فتدكها وتهدمها، والروم فتقهرها وتهزمها!!

(١) رواه البلاذري في فتوح البلدان (١/١١٣).

المعلم الثاني: تهلي أثر «الصعبة» في أخلاق الصديق وسلوكه:

جاء عن النبي ﷺ أن أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن الخلق^(١). فمن فاز منه بالسهم الأوفر كان الأفضل بين الأمة، وأبو بكر الصديق أحسن الأمة خلقاً بعد رسول الله ﷺ، ودليلنا القرآن، حيث وصف المولى جل وعلا الصديق بقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ ومع أن العبرة بعموم اللفظ إلا أن الآية واردة بدءاً في حق الصديق وفيها دلالة على امتياز الصديق بمحاسن الأخلاق وأرقاها، ولا شك أن التحلية بالكمالات لا تكون إلا بعد الاتصاف بالضروريات والأساسيات.

إن وجود حديقة جميلة تزهو بأجمل أنواع الورود وألوانها، وقد نظمت تنظيماً يخلب الألباب، وفيها من الأطيوار والبلابل المغردة ما تطرب له الأسماع، وتأنس إليه الأرواح، لا يتوقع الرائي أن هذا كله تابع لبناية خبرة من طين! لا بد من توقع رؤية قصر كبير!

والزينة لا تكون إلا بعد توفر عناصر الجمال، ولا توضع على محل ملوث بالأوساخ، وإلا كانت سفهاً، ولذلك قال الله تعالى يخاطب الصحابة رضي الله عنهم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَيَّكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] فالتزيين بعد التحبيب، ولا قيمة للزينة بلا حب، إن الحب أصل والزينة كمال، ووجود الكمال لا يكون إلا بعد وجود الأصل عند العقلاء.

وللأخلاق أصل وقاعدة كما أن لها زينة وكمالاً وحسناً وجمالاً، ولا

(١) روى أبو داود (٤٧٩٩) والترمذي (٢٠٠٣) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق». وصححه الشيخ الألباني: انظر: السلسلة الصحيحة (٥٦٣/٢) حديث (٨٧٦).

يطالب بمحاسن الأخلاق وكمالاتها من لم ينته من أصولها وأساسياتها.
والآن نأتي إلى حسن أخلاق الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجمالها وزينتها وكمالها،
وأمام أنظارنا قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت:
«كان خلقه القرآن»^(١). كذلك كان خلق الصديق.

موقفه من مسطح:

كان لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قريب اسمه «مسطح» ينفق عليه ويحسن إليه، فلما خاض المنافقون والذين في قلوبهم مرض في أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، خاض مسطح مع الخائضين في عرض أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دون أن يرقب فيه إلا ولا يداً.

وأُنزل الله جل وعلا - من بعد- براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في سورة «النور»، فحلف أبو بكر أن لا يصل مسطحاً ولا ينفق عليه بعد أبداً، ولا نعرف أحداً يمكن أن تسخو نفسه فيستمر بالإنفاق والإحسان إلى من طعن في عرضه وشرفه! اللهم إلا إذا بلغ من الدرجات أعلاها في حسن الخلق وكرم النفس، وأسماها في إنكار الذات من أجل عمل الخير للخير نفسه!

كانت هذه الدرجة العالية السامية هي التي أرادها الله تعالى أن تكون زينة وتاجاً على رأس محاسن أخلاق الصديق فحببها إليه، وزينها في عينيه، ودعاه إليها بقوله الرفيق الشفيق: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، حديث (١٧٧٣).

وكان جواب أبي بكر ﷺ حين سمع توجيه الله إليه بواسطة رسوله و«صاحبه»: «بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي»^(١). وعاد إلى مسطح يصله وينفق عليه!!

إن هذا الصنيع لا يُوفَّق إليه إلا طراز خاص من المؤمنين يقول الله عنهم: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُقْلَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقْلَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: ٣٤ - ٣٥]. وما كان الله ليرضى ل«صاحب» نبيه ﷺ إلا أن يكون من ذلك الطراز، صاحب الحظ العظيم والخلق القويم!

مظاهر تجلّى حسن خلق الصديق:

وتجلّى حسن خلق الصديق ﷺ في مظاهر كثيرة أبرزها ثلاثة. وهي:

المظهر الأول: الصدق والتصديق:

يكفيه شهادة على ذلك تفرد به بلقب «الصديق» من بين الأصحاب، يقول النبي ﷺ: «ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»^(٢).

وقد لقب أبو بكر في الجاهلية - كما لقب محمد ﷺ - ب (الصادق) فزاده الإسلام فلقبه ب «الصديق».

إن العرب قوم معروفون بصدق الحديث، يستحيي أحدهم أن يؤثر عنه شيء

(١) رواه البخاري كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، حديث (٢٦٦١)، ومسلم كتاب التوبة، باب في حديث الإفك حديث (٧١٩٦).

(٢) رواه مسلم كتاب البر والصلة، باب فتح الكذب وحسن الصدق، حديث (٢٦٠٧).

من الكذب ، فوجود الصادق بينهم لا يثير الانتباه ما لم يكن صدقه متميزاً ، لأن عامتهم صادقون ، فأن يفوز في مجتمع الصادقين شخص بلقب «الصادق» دليل على تميزه في الصدق وبلوغه شأواً عالياً فيه ، كالبطل المتميز بين الأبطال ، والشجاع بين الشجعان! وهذا كقوله تعالى : ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] مع أن كل مؤمن صادق .

وفيه وفي رسول الله ﷺ نزل قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣] .

وفيه نزل قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [٥] وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥ - ٧] .

وقوله : ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨] بتخفيف الصاد وهي قراءة متواترة .

لقد كان هذا التصديق أثراً من آثار صحبته لرسول الله ﷺ فعرفه معرفة الخبير ، فكان يسارع إلى تصديقه دون توقف أو تردد في كل شيء مهما كان غريباً! وكان إذا حاججه المنكرون يقول واثقاً مطمئناً : (إن كان قاله فقد صدق) ؛ لهذا روي أنه ﷺ قال فيه : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر»^(١) .

والتصديق إذا بلغ هذه الدرجة فهو أثر من آثار الصدق الفطري الذي طبعت عليه النفس وجبل عليه الطبع .

(١) رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٣٤٨/١) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/٤٤) . عن ابن عباس رضي الله عنه ، ورواه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية (٩١/٢) .

والصادق لا يدور في نفسه الشك، ولا يتوقع الكذب قط ممن وثق بهم؛ لأنه يرى فيهم نفسه التي ليس فيها إلا الصدق، فيكون حسنُ الظن تعبيراً عن الخير الذي جبلت عليه النفس.

المظهر الثاني: السجاعة:

لقد كان أبو بكر الصديق ﷺ أشجع الناس بعد رسول الله ﷺ: لم يتردد في موقف، ولم يضطرب أو يفر في معركة، بل كان حيث يكون الخطر أقرب الناس إليه، ولذلك اتخذته النبي ﷺ صاحباً له في أخرج المواقف وأصعب الظروف، فكان في الغار ثاني اثنين، وفي عريش بدر كذلك، وثبت معه في أحد وحنين - إذ قتل حامل لواء المشركين - وجميع المعارك ودافع عنه في مكة فضرب حتى كاد يموت.

أما موقفه - وقد انفرد بعد «صاحبه» - من المرتدين ومانعي الزكاة، والجزيرة قد انتفضت عليه وكادت قبائلها تغزو المدينة نفسها، فهو الموقف الذي تميد له الشم الرواسي.

وكان أبو بكر الجبل الوحيد الذي ظل راسياً لم تهزه الزلازل! لقد قرر قتال الدنيا مجتمعة مهما كانت الظروف وبلغت التضحيات وكانت النتائج!

جاءه عمر بن الخطاب يقول له: «تألف الناس وارفق بهم» فصرخ في وجهه: «أجبار في الجاهلية خوار في الاسلام! رجوت نصرك فجئتني بخذلانك!»^(١).

(١) رواه الإسماعيلي كما في كنز العمال (٦/ ٨٢٥)، ورواه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٧٧) بدون قوله: رجوت نصرك....

ولك أن تتصور شجاعة رجل يقف لعمر ويصرخ في وجهه ينزله بالحُور!
وعمر هو عمر في شجاعته، وسطوته وهيبته!!

يا من رأى عمرا تكسوه بردته يهتز كسرى على كرسية فرقا
والزيت أدم له والكوخ مأواه من بأسه وملوك الروم تخشاه
ثم تفكر في مدى صلابته ورباطة جأشه وثبات قلبه، وقد اجتمع حوله
الصحابة رضي الله عنهم يرجونه أن يلين فيوافقهم على إرجاع جيش أسامة ليستعينوا
به في القتال، ويذكرون له حراجه الموقف وتغير الظرف فما يزيده إلا
عزماً ومضاء! ويقسم أنه لن يحل عقدة عقدها رسول الله بيده ولن يرجع
جيش أسامة مهما كلفه الأمر من تضحيات.

رجل بلغ في الإيمان مداه! وفي الشجاعة مداها!

أخرج البزار في مسنده عن علي رضي الله عنه أنه قال: أخبروني من أشجع
الناس؟ قالوا: أنت. قال: أما إنني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه،
ولكن أخبروني بأشجع الناس. قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر، إنه
لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً فقلنا: من يكون مع
رسول الله لئلا يهوي إليه أحد من المشركين فوالله ما دنا منا أحد إلا أبا
بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا هوى
إليه فهو أشجع الناس. ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا
يجبأه وهذا يتلته وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟
فوالله ما دنا منا أحد إلا أبا بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ويتلته هذا وهو
يقول: ويلكم أقتلوا رجلاً أن يقول ربي الله؟! ثم رفع علي برده كانت
عليه ثم بكى حتى اخضلت لحيته ثم قال: أنشدكم الله، أمؤمن آل

فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم فقال: ألا تجيبوني؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون! ذاك رجل يكتُم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه^(١).

المظهر الثالث: الإنفاذ والكرم:

الشجاعة والكرم توأمان مقترنان، فكل شجاع كريم وكل كريم شجاع سجية.

لقد كان أبو بكر متميزاً في إنفاقه وكرمه، حتى لقد جعل القرآن الكريم من إنفاقه وكرمه علامة ونقطة تدل عليه فقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ [٧] الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٧ - ١٨] ، وقال تعالى قبلها: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [٥] وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [٦] فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥ - ٧] فأول صفة له وعلامة عليه الإيعطاء والكرم.

أخرج الحاكم وابن أبي حاتم والبخاري في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ وما بعدها: أعتق أبو بكر الصديق سبعة كلهم يعذب في الله تعالى منهم بلال وعامر بن فهيرة، ومنهم بعض نساء أسلمن فكن يعذبن على إسلامهن فقال له أبوه أبو قحافة: أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك أعتقت رجالاً جلدأً يمنعونك ويقومون ويدفعون عنك دونك؟ فقال: يا أبت إنني إنما أريد ما عند الله فنزلت في أبي بكر: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ الآيات إلى آخر السورة^(٢).

(١) رواه البخاري في مسنده (١٤/٣) حديث (٧٦١)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/٣٤٤): رواه البخاري وفيه من لم أعرفه.

(٢) رواه ابن اسحق كما في السيرة النبوية (٢/١٦٠) عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن =

لقد أنفق الصديق أمواله وسخر تجارته في مكة في سبيل الله حتى لم يبق له يوم الهجرة من رأس ماله البالغ أربعين ألفاً في أول دخوله الإسلام وأرباحه معه إلا خمسة آلاف أخذها معه وما أبقى لأهله درهماً!

ومن مواقف كرمه وإنفاقه المشهودة ما كان منه عند تجهيز جيش العسرة المتوجّه إلى تبوك وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ، إذ أنفق يومها أبو بكر ماله كله! حتى قال له رسول الله ﷺ: «ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟» فأجابه: أبقيت لهم الله ورسوله^(١)!!

وشهد له النبي ﷺ فقال: «ما نفعتني مال كما نفعتني مال أبي بكر»^(٢).

التعلي الثاني لفصائص الصديق في آية الغار تفرد بالمعينة الخاصة:

إن قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] هو حكاية لقول النبي ﷺ خطاباً لأبي بكر. وقد روى الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن أنس قال: حدثني أبو بكر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين قلت: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رأنا. قال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!»^(٣).

= بعض أهله، ومن طريقه: الطبري في التفسير (٤٧١/٢٤) إلا أنه جعله من مراسيل عامر، والحاكم في المستدرک (٥٧٢/٢) حديث (٣٩٤٢) إلا أن عامراً صرح عند الحاكم الراوي عنه وهو أبو عبد الله بن الزبير.

- (١) رواه الترمذي حديث (٣٦٧٥) وقال: حديث حسن صحيح. وحسنه الشيخ الألباني.
- (٢) رواه الترمذي ح (٣٦٦١) وابن ماجه ح (٩٤) وأحمد ح (٧٤٣٩) وصححه الشيخ الألباني.
- (٣) رواه البخاري كتاب التفسير، سورة براءة، باب قوله تعالى: حديث (٤٦٦٣)، ومسلم كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي بكر الصديق، حديث (٢٣٨١) واللفظ للبخاري.

والآية تصدق الرواية، والرواية تشرح الآية. وكلاهما من مشكاة واحدة. والناظر المتأمل يجد إخباراً من النبي ﷺ موثقاً من الله تبارك وتعالى بأن القائل - وهو رسول الله - و«صاحبه» - وهو أبو بكر - محفوظان جميعاً بمعية الله، وأن الله تعالى معهما: يحفظهما ويكلاهما ويدفع عنهما كيد الكائدين وغائلة المشركين.

وهذا التعبير السماوي عن المعية لم نجد له شبيهاً في القرآن الكريم ولم يرد لاثنين بخصوصهما إلا لمحمد ﷺ وأبي بكر ﷺ، وإلا لموسى وهارون عليهما السلام.

والأمر يحتاج منا إلى وقفة مناسبة نبسط فيها الكلام عن حقيقة هذه المعية وأنواعها أولاً، وعن تجليات آثارها ثانياً.

المعية وأنواعها:

فالعامة كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]. وهذه شاملة لجميع الخلق: مؤمنهم وكافرهم. وهي معية العلم وما في معناه. ولا فضل فيها لأحد.

إنما الفضل في المعية الخاصة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وهي معية التأييد والحب والرعاية والحفظ.

وهناك معية أخص، فهي أدل على الفضل من المعية الخاصة؛ لأن الفضل كلما كان أخص كان أدل على أفضلية من اختص به على غيره، كما لو كرم

الأمير جيشه المنتصر، ثم كرم قائد الجيش تكريماً خاصاً وأشرك معه في هذا التكريم جندياً آخر واحداً معه فهذا دليل على تميز ذلك الجندي، وإلا لما قرنه الأمير بالقائد وخصهما معاً بالتكريم دون الآخرين.

فقوله تعالى توثيقاً لما أخبر به نبيّه ﷺ صاحبه أبا بكر رضي الله عنه : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] لا يدخل فيه أحد سواهما. إن هذه المعية كانت لاثنين فقط هما النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه ؛ فهو أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالإمامة ومنصب الخلافة، كذلك فإن هذه المعية هي معية لذاته ﷺ غير مرتبطة أو معللة بصفة أو سبب. وهذه أبلغ مما لو كانت معلقة على صفة معينة.

معية الله لموسى عليه السلام دون قومه :

لقد تعرض موسى عليه السلام وقومه إلى موقف عصيب مشابه لموقف النبي ﷺ وصاحبه ﷺ في الغار، لقد طاردهم فرعون وجنوده حتى حصروهم أمام البحر وألجأوهم إليه فلم يكن لهم من منفذ! ﴿فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

الموقف واحد والصورة متشابهة: هنا موسى وقومه محصورون أمام البحر، وحولهم فرعون وجنوده، وهناك محمد ﷺ وصاحبه محصوران في الغار، وأبو جهل وجنوده محيطون بهما.

لكن . . تأمل كيف عبر القرآن عن كل من الموقفين؟ وكيف رسم كلاً من الصورتين؟!

لقد استعمل مع موسى عليه السلام لفظ: «أصحاب موسى» ومع محمد ﷺ

لفظ «صاحبه». و«صاحب» محمد ﷺ هادئ النفس مطمئن الضمير سوى أنه حزين أو يقارب أن يكون كذلك، فيواسيه صاحبه رسول الله ﷺ ويخفف من حزنه قائلاً: «لا تحزن إن الله معنا». أما «أصحاب موسى» فكانوا خائفين هلعين آيسين لا أمل عندهم في النجاة: «إنا لمدركون»! فيجيبهم صاحبهم: «كلا إن معي ربي سيهدين».

انظر! لقد قال موسى ﷺ «معي» ولم يقل: «معنا» كما قال النبي ﷺ لصاحبه: «إن الله معنا»، فنجاة أصحاب موسى لا لأن الله معهم، وإنما إكراماً لموسى ﷺ وتبعاً له، بينما كانت نجاة الصديق ﷺ صاحب النبي ﷺ بالمعية الإلهية لا بالتبعية النبوية فقط! فالله مع النبي ﷺ وصاحبه، بينما هو مع موسى ﷺ دون أصحابه.

وتأمل كيف أن «معية» موسى ﷺ تقدم فيها ذكر ما للنفس على ذكر الرب: «معي ربي»! «ومعية» محمد ﷺ و«صاحبه» تقدم فيها ذكر الله على ما للنفس: «الله معنا». وهذا أقرب للطمأنينة والثقة واليقين والتعلق الخالص من كل حظ للنفس وإن كان مطلوباً مشروعاً.

والنظم على كل حال أبلغ وأدل على الفضل، والنبي ﷺ و«صاحبه» يشتركان فيه!

بين المزن والضوف:

لم يرد في الآية الكريمة أن أبا بكر ﷺ كان خائفاً رغم أن الموقف موقف خوف أكثر منه موقف حزن، وإنما ورد فيها ذكر الحزن، والحزن غير الخوف الحزن على أمر واقع، والخوف من أمر متوقع، فما يقال من

أن أبا بكر رضي الله عنه كان خائفاً مضطرباً لا أصل له، ولا دليل عليه سوى الدعوى العارية.

وحتى لو افترضنا أن التعبير جاء بلفظ «لا تخف» دون «لا تحزن» فليس في ذلك من عيب أو قدح لأسباب عديدة منها:

١- إن قول النبي ﷺ لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا لا يبقی للخوف قدحاً ما دام أن الله مع الخائف. فيكون كقوله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾ [طه: ٤٦].

٢- إن الخوف انفعال نفسي طبيعي لا عيب فيه لذاته، وإنما يذم إذا زاد عن حده، أو اقترن به ما يشين، وإلا فكل إنسان يخاف حتى الأنبياء عليهم السلام كما أخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام بقوله: ﴿فَفَزَعْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، وقوله: ﴿وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]، وقوله: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]، وغيرها من الآيات، وكما خاطبت الملائكة لوطاً عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

٣- إن صيغة النهي لا تستلزم وقوع المنهي عنه إلا بدليل منفصل. وذلك كقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وكما توصي ابنك تقول: لا تكذب، لا تسرق الخ. فهذا مجرد تحذير لا يستلزم وقوع المنهي عنه وهو الكذب والسرقة. الخ. بل هو أدعى لعدمه.

فلو افترضنا أن النص جاء هكذا: (لا تخف إن الله معنا) لما دل على

تحقق وقوع الخوف، فكيف ولا ذكر للخوف فيه! إنما هو الحزن! وهو كقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

عريش بدر:

وتفرد الصديق بصحبة النبي ﷺ في هذا الموقف العصيب- غار ثور-، هو كتفرده بصحبته في عريش بدر، وقد اختاره ﷺ من بين جميع أصحابه وفيهم عمر وعلي والزبير وغيرهم من الصناديد، فلم يكن معه غيره فيه!

نزول السكينة والتأييد:

ومن العنت- بعد- البحث عن منافذ للتخلص من قبضة سلطان الآفة والتفلت من أحكامها، كالقول بأن نزول السكينة والتأييد جاء بضمير الأفراد فلا يشمل أبا بكر؛ فإنه عاطل عن الدليل، بله الذوق اللغوي العربي.

إن كلام الرب لا يتناقض!

إنه- سبحانه- أكد إخبار النبي ﷺ لصاحبه بأن الله معهما جميعاً، والمعية هنا إن لم تكن معية الحفظ والسكينة والتأييد فلا معنى لها، ولا علاقة لها بنفي الحزن، وعلى هذا فلا يعقل أن يكون ما بعدها نافياً لما قبلها وإلا حصل التناقض، وهو مستحيل في كلام الرب جل وعلا، وكذلك يكون النبي ﷺ - وحاشاه- كاذباً في الإخبار، وهو ممتنع أيضاً، أو يكون كلاهما قد استعمل «التقية»، والقول بذلك سخف وكفر! فلم يبق إلا تصديق النبي ﷺ في إخباره أن الله تعالى مع أبي بكر رضي الله عنه كما هو معه، فالسكينة والتأييد لكليهما معاً لأن الله معهما جميعاً.

هذا من حيث الإجمال.

أما من حيث التفصيل فنقول: إن المقصود بكلام الرب أصلاً هو النبي ﷺ وليس أبا بكر؛ فقد بدأ الكلام هكذا: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بضمير الإفراد، فلا بد أن ينتهي كذلك بضمير الإفراد، وهكذا كان: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أما ذكر أبي بكر رضي الله عنه فقد جاء معترضاً في وسط العبارة من كلام النبي ﷺ وليس من أصل كلام الرب، إنما حكاها الله عنه حكاية بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فلما انتهى الكلام المعارض المحكي عن النبي ﷺ اتصل كلام الرب، فكان بالإفراد كما بدأ بالإفراد ليتسق الكلام، وإلا خرج عن مقتضى البلاغة وكان في الكلام زيادة - وهو ضمير التثنية - لا تأتي بفائدة؛ إذ شمول الصاحب بما يكرم الله به صاحبه محسوم سلفاً بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فهو معه في كل شيء، وكما أنه شاركه في المخاطر والغرم فهو شريكه في المكارم والغنم؛ فلا داعي للإتيان بضمير التثنية لأداء هذا المعنى، فكان التعبير بضمير الإفراد لدلالة ما قبله عليه، وما لا داعي له ولا فائدة منه زيادة لا محل لها في كلام الرب جل وعلا.

آثار المعية وتجلياتها:

المعية والتفرد بالفضائل «الخصائص»:

إن أفضلية الصديق رضي الله عنه على بقية الصحابة رضي الله عنهم لا تتجلى في تفوقه عليهم عند المقارنة فحسب، وإنما تتجلى حقاً حين تلاحظ من زاوية أخرى أجلّ وأسمى ألا وهي: اقترانه بالنبي ﷺ ومشاركته المتفردة له في

«المعية الإلهية».

وتأمل لفظ «ثاني اثنين» في الآية: إنه ينطبق على أبي بكر ﷺ فهو ثاني اثنين، وكذلك على النبي ﷺ فهو ثاني اثنين، وهذا كما قال تعالى عن نفسه: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، أي هو واحد من أربعة، لا أنه - سبحانه - الرابع ترتيباً.

فأبو بكر ﷺ واحد من اثنين خصهما الله تعالى بمعيته، فهو الأول على الصحابة ﷺ والمقدم فيهم لا لسبقه إياهم - وإن كان هذا حاصلًا تحصيلًا - وإنما لكونه الثاني بعد رسول الله ﷺ، هذه هي علة التقديم، أما سبقه الصحابة فهو - كما أسلفت - تحصيل حاصل.

ولما كان أبو بكر ﷺ كذلك - أي أنه الثاني بعد رسول الله ﷺ مباشرة - فهو الأول تلقائياً في غيابه ﷺ، دون النظر إلى الغير كائناً من كان! وهذا ملحظ دقيق، وفرق عظيم!!

إن مثل أبي بكر وأفضليته على الأصحاب كمثّل إمامين في مسجد واحد، أما أحدهما فهو الإمام الأصيل المقدم لعلمه وأهليته، وأما الثاني فهو وكيله الذي يأتي بعده في المرتبة والتقديم، فحيثما غاب الإمام الأول كان من المتسالم عليه بين المصلين أن الإمام الآخر هو الذي ينوب عنه بلا منازع، نعم لو غاب كلاهما رجعوا إلى أصول الترجيح في تقديم الإمام للصلاة.

إن أولية الثاني عند غياب الأول لا تلحظ من حيث المقارنة ببقية المصلين.. وإنما من حيث كونه الثاني أو الوكيل عن الإمام الأول.

وهكذا كان الأمر مع أبي بكر رضي الله عنه في أفضليته وإمامته، وهي منزلة لم تتأت لأحد غيره من الصحابة! لقد كان خيرة الأصحاب بعد الصديق - أي عمر بن الخطاب رضي الله عنه - يجهد نفسه - وأبو بكر لا يدري - يحاول سبقه لكنه يجد نفسه وراءه في نهاية المضمار! وعمر هو القائل: «ما استبقنا إلى خير إلا سبقني إليه أبو بكر»^(١).

ولا شك أن رجلاً يسبق الآخرين دون أن يدري أنه في سباق أو أن أحداً يسابقه يكون متفرداً في البطولة والسبق! هذا حال أبي بكر في السبق إلى الخيرات والحرص على المكرمات.

نائب النبي ﷺ:

ولذلك كان رضي الله عنه ينوب عن النبي ﷺ في كل موقف مهم بلا منازع. وأعظم موقفين مهمين تقدم فيهما الصديق عند غياب النبي ﷺ في حياته هما الحج والصلاة، ثم ناب عنه في أداء الزكاة بعد الوفاة.

معالم تجلّي آثار المعية:

المعلم الأول: نيابته في الصبح عن النبي ﷺ:

ففي السنة التاسعة لم يحج النبي ﷺ فأناوب عنه أبا بكر يحج بالناس، ولم تكن في حياة النبي ﷺ إلا حجتان تأمر على إحداهما أبو بكر، وعلى الأخرى رسول الله ﷺ، وإنما ذهب علي بسورة براءة بعد نزولها خلف أبي بكر تابعاً ومأموراً يحج بحجه ويصلي بصلاته، وليس له إلا قراءة

(١) رواه أحمد في مسنده ح (٣٦٦٢، ٤١٦٥، ٤٣٤٠) وصححه الشيخ شعيب بشواهده.

المنشور الإلهي، يساعده في ذلك أبو هريرة ورهط من الصحابة^(١). وكان فيه حل بعض العقود وإتمام بعضها، والعرب من عاداتهم أن لا يحل العقود ولا يعقدها إلا الأمير، أو واحد من أهل بيته، وعلى كل حال فقد كان أبو بكر هو الأمير.

المعلم الثاني: صلاته بالناس في مرض النبي ﷺ:

ولما مرض النبي ﷺ أناب عنه أبا بكر ﷺ يصلي بالناس، والصحابة جميعاً متوافرون وفيهم علي وعمر وعثمان ﷺ، ولما تقدم عمر ﷺ في أحد الأوقات - وكان الصديق غائباً- وسمع النبي ﷺ صوته يصلي بالناس صرخ غاضباً يسمع الناس: «فأين أبو بكر؟! يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون»^(٢).

المعلم الثالث: إلزامه الناس بأداء الزكاة:

وهذه سياأتي الكلام عنها.

المعلم الرابع: البيعة المتفردة وعدم حاجتها إلى نص أو تعيين:

ولما توفي النبي ﷺ كانت بيعة أبي بكر ﷺ بالخلافة وتقدمه فيها كتقدمه في الحج والصلاة، وكل شيء في حياته.

إن بيعة الصديق أوضح من أن تحتاج إلى نص أو وصية أو كتاب، هذه كلها لا يحتاجها أبو بكر فهو أكبر من أن يكون في حاجة إلى مثل ذلك! وإن

(١) رواه البخاري كتاب التفسير سورة براءة، باب قوله تعالى: ﴿فَاسْيَحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ حديث (٤٦٥٥)، ومسلم كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك، حديث (١٣٤٧).

(٢) رواه أحمد حديث (١٨٩٢٦) وأبو داود (٤٦٦٠)، وصححه الشيخ الألباني.

كان ﷺ أراد أن يعهد إليه ويكتب في ذلك كتاباً إلا أنه تراجع عن ذلك حين رأى أنه لا حاجة إليه. وعبر عن ذلك بقوله: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»^(١). وكان قبلها قد حصل لخط ومراجعات في شأن الكتاب، فقال النبي ﷺ: «قوموا عني»^(٢) وترك الأمر لعدم أهميته. ولو كان ضرورياً وتوقف عليه مصلحة للأمة لا يضمن النبي ﷺ حصولها بدونه لما تركه، فإنه ﷺ معصوم عن ذلك.

إن المؤمنين يعلمون أن أبا بكر ﷺ هو الأولي بمنصب الخلافة، ويأبون أن يتولى عليهم - في وجوده - غيره، ولا يحتاج علم ذلك إلى كتاب أو أدلة ترجيح؛ لأن تقدّم الإمام الثاني في غياب الإمام الأول أمر مفروغ منه بلا كتاب ولا حساب.

لذلك قال عمر ﷺ وهو يحكي اجتماعهم للبيعة في السقيفة المباركة وقد قال أبو بكر: «وإني أَرْضَى لكم أحد هذين الرجلين - أي عمر وأبا عبيدة - : «فلم أكره مما قال إلا هذه الكلمة، فلأن أقدم فيضرب عنقي في غير معصية الله أحب إلي من أن أتقدم على قوم فيهم أبو بكر»^(٣).

ويقول: «ليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر! من بايع رجلاً

(١) متفق عليه، رواه البخاري كتاب المرضى، باب ما رخص للمريض أن يقول ح (٥٦٦٦)، ومسلم كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي بكر الصديق ح (٢٣٨٧) عن عائشة رضي الله عنها، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه البخاري كتاب العلم، باب كتابة العلم، ح (١١٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري كتاب المحاربين، باب رجم الحلبي في الزنا، ح (٦٨٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

عن غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا»^(١) أي أن بيعة أبي بكر متفردة لا يقاس عليها، وذلك لتفرد صاحبها فلا يقاس عليه لانعدام النظير، والقياس مع الفارق لا يصح.

وأما قول عمر: «إن بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها» فقد جاءت في معرض الرد على من قال ذلك؛ فقد قال عمر: «بلغني أن قائلاً منكم يقول: والله لو قد مات عمر بايعت فلاناً، فلا يغترون امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة وتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر»^(٢). ومعنى «فلتة» أنها تمت من دون تحضير في ظرف طارئ غير محسوب، رسم صيغتها هذا الظرف الطارئ العاجل بلا تخطيط مسبق يقتضي اجتماع أهل الحل والعقد جميعهم، وإلا حسم الأمر وسارت الريح بما لا تشتهي السفن. ولا يعقل أن عمر أراد من ذلك الذم، فالتعلق بهذه الكلمة - دون تفسيرها بما يتلاءم وسياق الحال والمقال - تعلق الغريق بالقشة، وتمسك المفلس بكسر النقود!.

(١) رواه البخاري كتاب المحاربين، باب رجم الحلبي في الزنا، ح (٦٨٣٠) عن ابن عباس رضى الله عنهما. وتغرة: كراهة وحذراً.

(٢) رواه البخاري كتاب المحاربين، باب رجم الحلبي في الزنا، ح (٦٨٣٠) عن ابن عباس رضى الله عنهما.

التجلي الثالث لفصائص الصديق في آية الغار:

تفرده بوصف «ثاني اثنين»:

وهو من تجليات المعية له وللنبي ﷺ خاصة أيضاً.

إن قوله تعالى: ﴿ثَانِيَانِ﴾ وإن جاء في سياق الآية مقصوداً به النبي ﷺ، ولكن مقتضى اللغة يجعله منطبقاً على أبي بكر أيضاً، لأن العرب إذا قالوا: ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة أو سابع سبعة لا يقصدون واحداً بعينه، وإنما القصد واحد من اثنين وواحد من ثلاثة.. الخ، أي إن كل واحد منهم ثاني اثنين وثالث ثلاثة.. الخ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حُمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]. فالنبي ﷺ في الغار كان ثاني اثنين، وأبو بكر ثاني اثنين كذلك، ولا شك أن ترتيب النبي ﷺ من حيث المنزلة يأتي أولاً، فأبو بكر ثاني اثنين لفظاً ومعنى.

تجليات «ثاني اثنين»:

وقد تجلى كون الصديق ثاني اثنين بعد رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة منها:

١ - ثاني اثنين في معية الله تعالى.

٢ - ثاني اثنين في الإيمان: إذ هو أول من آمن «من الرجال».

٣ - ثاني اثنين في الدعوة إلى الله: إذ هو أول من دعا إلى الله بعد النبي ﷺ، فاهتدى بدعوته خيرة رجالات الإسلام وأعمدته التي قام عليها، ومنهم:

عثمان بن عفان: ذو النورين الذي ساهم في قيام الإسلام بأمواله وجهاده.

وعبد الرحمن بن عوف: ظهير عثمان في الإنفاق والجهاد.

وسعد بن أبي وقاص: الذي كان يلقب بالأسد عادياً خال رسول الله ﷺ، وأول من رمى بسهم، وأول من أراق دماً من مشرك في سبيل الله، بطل القادسية وفتح العراق ومحرره من الاستعمار الفارسي الذي دام ألفاً ومائة وخمسة وسبعين عاماً، مبيد الأكاسرة وهازمهم.

وطلحة بن عبيد الله: الذي كان يلقب بطلحة الخير وطلحة الجود لكرمه، وكان من الشجعان المعدودين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

والزبير بن العوام: حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته، كان يعد بألف فارس لشجاعته وبلائه في الحروب! وهؤلاء مع علي هم أهل الحل والعقد في الأمة وأعضاء مجلس الشورى الذي عينه عمر رضي الله عنه لاختيار الخليفة من بعده، مما يدل على حسن اختيار الصديق وبعد نظره في معرفة الرجال.

كما أسلم على يديه كثير من مشاهير الإسلام وصفوتهم كأبي سلمة وخالد ابن سعيد وعثمان بن مظعون.

وهو أول من خطب في المشركين يدعو إلى الله تعالى بعد خطبة النبي ﷺ على الصفا، إذ دخل هو ورسول الله ﷺ الكعبة فقام أبو بكر فيها خطيباً

٤ - وثاني اثنين في الغار وهو أخرج موقف تعرض له

رسول الله ﷺ وأخطره.

يقول فيه حسان بن ثابت رضي الله عنه :

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو به إذ صعد الجبال

وكان حب رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلاً فروي عن النبي ﷺ أنه ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: صدقت يا حسان هو كما قلت^(١).

٥ - وثاني اثنين في صحبة النبي ﷺ في الهجرة والتعرض لمخاطرها.

٦ - وثاني اثنين في عريش بدر.

٧ - وثاني اثنين في المشورة والرأي والمداولة في أمور الأمة.

٨ - وثاني اثنين في صحبة النبي ﷺ في ذهابه وإيابه.

٩ - وثاني اثنين في الصلاة: حيث كان هو المقدم إذا غاب رسول الله ﷺ.

ومن ذلك ما كان في مرض وفاته ﷺ، إذ قدمه رسول الله ﷺ يصلي بالناس بضعة أيام لم يرض غيره إماماً حتى ولو كان عمر!

وكان آخر ما ودع به ﷺ أمته أن نظر إلى صفوفهم في الصلاة وهم يؤدونها خلف إمامهم أبي بكر فجر اليوم الذي قبض فيه -بأبي هو وأمي- ومن فرحه ابتسم ابتسامة عريضة رضاء بما يرى، حتى كاد أن يفتتن المسلمون عن صلاتهم من شدة فرحهم، ظناً منهم أن رسول الله ﷺ قد تماثل للشفاء!

لقد سرّت إمامة أبي بكر الصديق رسول الله ﷺ وفرح له حتى ابتسم وأشرق وجهه بالبشر، فكيف تغيط مسلماً يؤمن بالله واليوم الآخر ويضيق

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (١٧٤/٣) عن الزهري مرسلاً، ورواه في مستدركه (٦٧/٣) حديث (٤٤١٣)، وفيه عمرو بن زياد يضع الحديث كما قال الذهبي في التلخيص.

لها صدره ويتمعر وجهه!!^(١).

١٠ - وثاني اثنين في الزكاة: يوم أن امتنعت عن أدائها قبائل الجزيرة بعد وفاة النبي ﷺ، فحلف أبو بكر: «لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة» وبرّ بقسمه، فكان الرجل الذي يقول ويفعل، وكان أحق الناس بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِقَبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وكان مسيلمة الكذاب قد اختصر الصلوات الخمس إلى ثلاث مهراً لسجاح، فأعادها أبو بكر الصديق إلى ما كانت عليه، وتأمل التقابل بين «الكذاب» و«الصديق» وكيف سلط الله صديق الأمة على كذابها!

وارتدت بعض القبائل عن إقامة الصلاة فأرجعهم إلى إقامتها، ونشر الصلاة والزكاة في ربوع الأرض التي كانت تحت سيطرة فارس والروم.

١١ - وثاني اثنين في الحج: إذ أمره النبي ﷺ على الحجيج في السنة التاسعة، وهي الحجة الوحيدة قبل حجة الوداع، كما مر بنا سابقاً، وهكذا كان أبو بكر ثاني اثنين في أعظم أركان الإيمان والإسلام.

(١) روى البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩) عن أنس بن مالك أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع رسول الله ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكاً. قال: فبهتنا ونحن في الصلاة من فرح بخروج رسول الله ﷺ، ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ خارج للصلاة. فأشار إليهم رسول الله ﷺ بيده أن أتموا صلاتكم. قال: ثم دخل رسول الله ﷺ فأرخى الستر. قال: فتوفي رسول الله ﷺ من يومه ذلك.

١٢ - وثاني اثنين في القرآن: وهذه من أعظم خصائص الصديق ومناقبه التي أفرد الله بها! يفوز بشرف قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧] فكان الذي قرأ القرآن وبلغه وكتبه رسول الله ﷺ، وكان الذي جمعه في مصحف واحد مرتباً بين دفتين أبا بكر الصديق ﷺ، إذ كان الجمع متعذراً في عهد أولهما ﷺ لعدم اكتمال القرآن ونزوله مفزاً لا مرتباً، فلما اكتمل آخر حياته قام بهذا العمل خليفته من بعده، ولا شك أن الله تعالى لا يوفق لكرامة هذا الإنجاز العظيم إلا المصطفين الأخيار والمقربين من الأبرار.

١٣ - وثاني اثنين في قيادة الأمة: فكان «خليفة رسول الله ﷺ» وتفرد بهذا اللقب فلم يسم به أحد من الخلفاء، وهو من موافقات القدر! وكان الصديق أحقهم به لكمال متابعته لنبيه ﷺ وسيره الكامل على نهجه.

وسمي غيره بـ«أمير المؤمنين» وهو لقب مشترك وليس مختصاً بأحد كلقب الصديق.

١٤ - وثاني اثنين في دعوة العرب وجهادهم وإدخالهم أو إرجاعهم إلى الإسلام الكامل الصحيح، إذ جاهدهم النبي ﷺ كافرين مشركين وجاهدهم الصديق ﷺ مرتدين أو زائعين.

١٥ - وثاني اثنين في جهاد العالمين: فأول من خرجت جيوشه إلى خارج الجزيرة العربية رسول الله ﷺ في مؤتة وتبوك، وعقد الراية آخر حياته لأسامة بن زيد رضي الله عنه فأنفذه الصديق، ثم توالى من بعد جيوشه تضرب فارس والروم.

١٦ - وثاني اثنين في الصدق والتصديق: وهي صفة اشتهر بها في الجاهلية فكان يسمى - كرسول الله ﷺ - بـ«الصادق» ووصفه ابن الدغنة - وهو أحد شيوخ قبائل العرب - لما رآه عازماً على الخروج إلى الحبشة فقال: «ما مثلك يا أبا بكر يخرج، إنك لتصدق الحديث، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر»^(١).

فوصفه بالصفات نفسها التي وصفت بها خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله ﷺ أول عهده بالوحي، وأولها الصدق: «إنك لتصدق الحديث»!^(٢) ثم نزلت الآيات في ذلك كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] كما مر بنا.

١٧ - وثاني اثنين في المنزلة بعد رسول الله ﷺ: إذ تفرد بلقب «الصديق»، ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فكان محمد هو النبي، وأبو بكر هو الصديق، ثم يأتي من بعدهم الصحابة ما بين شهيد وصالح.

ولهذا لما كان رسول الله ﷺ مع ثلة من أصحابه على الجبل ورجف بهم قال له: «اسكن حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد» وكان معه أبو بكر

(١) رواه البخاري، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، حديث (٢٢٩٧)، ولكن بدون لفظ: وتصدق الحديث.

(٢) رواه البخاري كتاب التفسير، باب تفسير سورة العلق، حديث (٤٩٥٣)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث (١٦٠) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الصديق - ولم يمت شهيداً - وعمر وعثمان وعلي وطلحة وآخرون^(١) كلهم ماتوا شهداء!

فأبو بكر أفضل صديق لأفضل نبي في خير أمة، فهو خيرة البشر بعد الأنبياء عليهم السلام فمن أولى منه بإمامة الأمة وقيادتها!

١٨ - وثاني اثنين في التقوى: ففيه وفي رسول الله ﷺ نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]^(٢)، وهل هناك أتقى ممن جمعه الله تعالى مع نبيه وجعله شريكاً له في تقواه!

وأدل على ذلك قوله تعالى عنه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ (٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الحجرات: ١٣]، فأبو بكر هو الأتقى من بين الأمة، وهو الأكرم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَكُمُ﴾ [الحجرات: ١٣]. وسيأتي لاحقاً - إن شاء الله - مزيد تفصيل في ذلك.

١٩ - وثاني اثنين في الإحسان: وهو أعلى درجات الإيمان، إذ قال تعالى فيه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٣) هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٤].

٢٠ - وثاني اثنين في الجزاء والرضا: قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]. وقال عن «صاحبه»: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل طلحة والزبير، حديث (٢٤١٧)، ورواه البخاري (٣٦٧٥) بلفظ: أثبت أحد... وليس فيه ذكر طلحة والزبير.

(٢) رواه الطبري في تفسيره عن علي بن أبي طالب ﷺ (٢١/٢٩٠)، قال الحافظ في الفتح (٢١/١٠٦): سنده لين. وضعفه الشيخ الألباني في الضعيفة (١٠/٦٠٢) وقال: فيه عمر ابن إبراهيم بن خالد، قال عنه الدارقطني: كذاب خبيث.

[الليل: ٢١] في آخر قوله: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾ [البقرة: ١٧ - ٢١]. ولم يعد الله تعالى أحداً بعينه بذلك سوى نبيه و(صاحبه)، والتعبير عن الوعد واحد. «لسوف ترضى» و«لسوف يرضى».

ولو تدبرنا الآية في الفقرة السابقة (١٩) لوجدنا المشار إليه مشاركاً لرسول الله ﷺ في الجزاء المذكور بقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَجَزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ [الزمر: ٣٤ - ٣٥].

٢١- وثاني اثنين في التنويه بالذكر والفضل تشخيصاً في القرآن:

إذ أن كل ما ورد في القرآن الكريم من فضائل في شأن الصحابة رضي الله عنهم جاء بصيغة العموم وليس بصيغة التخصيص التي يفهم منها تشخيص المراد بالذكر دون الحاجة إلى معرفة أسباب النزول، إلا رسول الله ﷺ - فهو الأصل والقرآن كله في فضائله - وصاحبه فإن آية الغار قد تواطأت القلوب والعقول على أنها في الصديق دونما حاجة لأسباب النزول.

أما (زيد) الذي جاء ذكره في سورة «الأحزاب» فقد ورد عرضاً دون إشارة إلى مدح أو ذم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وأما الثلاثة الذين خلفوا وذكروا في سورة (التوبة) فهم قد ارتكبوا ذنباً تابوا منه فتاب الله عليهم، ولا يمكن معرفتهم دون الرجوع إلى روايات أسباب النزول.

٢٢ - وثاني اثنين في «الحديبية»: إذ هو الوحيد من الصحابة ﷺ الذي تابع المتابعة التامة وكان موافقاً (لصاحبه) في كل شيء دون تلجلج أو تردد أو اعتراض، بل كان منشراح الصدر إيماناً و يقيناً، والجمع المؤمن كله مغموم مكروب، وفيهم عمر وعلي الذي رفض أن يمحو من كتاب الصلح كلمة «رسول الله» رغم أن الذي أمره بمحوها الرسول ﷺ نفسه، فاضطر إلى محوها بيده الشريفة بعد أن دله عليها!

وعمر يقول: يا نبي الله أأست نبي الله حقاً؟ فيجيبه ﷺ: «بلى يا عمر»، قال: فلم نعطي الدنيا في ديننا؟ قال: «يا عمر إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري» ويذهب إلى أبي بكر - والموقف عصيب - ليلقي عليه الأسئلة نفسها.. ويتلقى الأجوبة نفسها التي سمعها من رسول الله ﷺ! يقول عمر: فأخذ أبو بكر بيدي وجذبها في قوة وقال لي: «أيها الرجل إنه رسول الله ولن يعصيه وإن الله ناصره فاستمسك بغرزه فوالله إنه على الحق»^(١) فأنزل الله السكينة على قلبي وعلمت أنه الحق.

٢٣ - وثاني اثنين في المطاعن: فإن أعظم مطعن وُجه إلى رسول الله ﷺ كان في عرضه وزوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وعائشة هي ابنة أبي بكر؛ فكان أبو بكر ثاني اثنين في أعظم المطاعن!

٢٤ - وثاني اثنين في المخاطر: التي تعرض لها بيته يوم الهجرة، إذ كان الكفار يترددون بين بيت النبي ﷺ وبيت أبي بكر رضي الله عنه، حتى أن أبا جهل

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، حديث (٢٧٣١-٢٧٣٢).

ضرب ابنته أسماء رضي الله عنها فأطار قرطها من أذننها وأدمى وجهها! ^(١) وكان يمكن لبيته أن يتعرض للمحو والاجتثاث!

٢٥ - وثاني اثنين في الدفن بجوار النبي ﷺ فكان قبره بجوار قبر «صاحبه»، وكان ملازماً له بعد مماته كما كان في حياته وتفرّد أبو بكر بـ «الصحبة» وفاز بها حياً وميتاً!!

أما قبر عمر رضي الله عنه صاحب الثاني فكان إلى جوار قبر أبي بكر رضي الله عنه.

التجلي الرابع لخصائص الصديق في آية الغار تفريده بمراعاة النبي ﷺ :

وذلك بقوله ﷺ الثابت قطعاً في القرآن الكريم: ﴿لَا تَحْزَنُ إِنْكُ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وهذه من خصائص الصديق رضي الله عنه حتى كأن الله تعالى هو المواسي.

وهي من جنس مواساة الله لرسوله في قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] ، وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يس: ٧٦] ، وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنْكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] ، ومواساة المؤمنين بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. مواساة المؤمنين عامة، بينما مواساة الله لصاحب نبيه ﷺ خاصة.

(١) القصة رواها ابن اسحق كما في السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٨٧)، ومن طريق ابن اسحق، رواها الطبري في التاريخ (١/ ٥٧٠) وسندها منقطع.

ومن جنس مواساة الله تعالى لأم موسى وتطمينها بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] . ومواساة عيسى عليه السلام لأمه: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحُكَّ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] . فكيف بمن كان العلي الأعلى معه؟!

ومواساة الملائكة لنبي الله لوط عليه السلام: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣] ، وتطمينهم للمؤمنين عند الموت كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] .

* * *

الخاتمة

وبعد:

فيما سبق كان عبارة عن ومضات ولمحات، استشففناها من آية واحدة نزلت في فضل الصديق رضي الله عنه، فنرجو أن نكون قد وفّقنا في العرض، وما قصدنا من بحثنا هذا إلا بيان فضل الصديق والتذكير بصنّاعه حتى لا تهون مكانته ولا تنحسر منزلته، وحتى نعذر إلى الله ولا نترك الساحة فارغة لغربان الشوم ودواهي البوم الذين ينعثون بالليل والنهار مسيئين إلى أصحاب النبي المختار، فرضي الله عنك يا صديق الأمة، وألحقنا بك في جنته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.